طعم الجنس الذي تحترق في داخله شهوة الحياة . شهوة الحياة هي مفتاح اللحظة الشعرية في رواية حيدر حيدر . حيث تمتد الى ما لا نهاية . تهز البرك الآسنة ، تحرك الخفايا ، ثم حين تلملم اغراضها لتمشي ، نكتشف اننا لم نكن خارج لحظة واحدة محددة . فالزمن المتداخل الذي تصيغه أحداث الرواية، يعطي شعورا بالرتابة الصحراوية. تتحرك الرغبات في رمل لا تصله مياه البحر المالحة . لكن الزمن عوض ان يتثاقل ليلف دفعة واحدة الماضي والمستقبل فانه يقع في لحظة حاضرة . لذلك كانت الكتابة الشعرية انفجارا داخل موقف واحد . أي انها لا تدعي لنفسها قدرة على صياغة حدث روائي داخل سلسلة من المواقف . بل تكتسفي بالمواقف ، تكسرها من داخلها في زمن سيكولوجي متحرك . نحن امام مجموعة من الاحداث . علاقات اجتماعية . خواطر . لكننا حين ننتهي من قراءة الرواية ، ونحاول القبض على احداثها لنستعيدها، تفلت الاحداث من بين ايدينا ، ولا يبقى سوى الصوت الشعري الذي يوحد ازمانا متداخلة في انشداد كامل نحو الداخل. لا هدف للحدث الروائي سوى الوصول الى أحد امرين : الحلم او الكابوس . لذلك لا يعلق في الذاكرة سواهما . ونعيد نحن صياغة هذا الحلم او الكابوس في حياتنا اليومية . هنا يقفز الشعر حاملا لغة الدلالات ، ثم ينكسر امام الدلالات نفسها ، أي لا يبقى من الشعر سوى دلالاته وتسقط اللغة وحيدة في الخارج . نحن مع حيدر وابطاله في عالم غريب من الرموز والدلالات . ننساق خلف الحلم ، ثم حين تأتي العناصر الواقعية التي تلتقطها الرواية من احداث سياسية عشناها يفلت الحلم من أيدينا ونبقى في كابوس مرعب ، تعتصره شهوة الحياة . « في الحالة النواسية بين الشهادة والانسحاب كنت أتع » . ويصير العربي « في خسر » .

داخل الموت

هذه العلاقات التي تجعل من الحدث الروائي ، مجرد صدى للشعر ، تقوم بنقلنا الى داخل الموت، حيث نعود الى عملية اكتشاف ذاتية حادة : « العربي مصاب بعقدة استخلاب الالم » . ثم حين نصل الى فلسطين ، نستمع الى رؤيا الضحايا :

« وقلت بسرعة : انك احد ابطال فلسطين

وقال : بل قل أحد الضحايا

وهمهمت : ولكن ما الفائدة » .

هكذا نتعرف على علاقات الضحايا وهي تتلمس الافق ، وسط دخان كثيف من الشعارات الكاذبة . وتتوالى الدوائر . والناس في داخلها يبحثون عن نقاط ارتكاز ، لا نجدها خارج علاقاتهم ببعضهم . أي تتسع هذه الدوائر دون ان تتكسر فيضيق الخناق . وتتحرك الاحداث برتابة حتى تصل الى سكونية كاملة في نهاية الرواية . لا يتداخل الزمن من أجل الولادة ، بل يتداخل كما في لحظة الموت . هنا تقع الرواية بأسرها . الخيبة كاملة تجثم بجسدها ولا تتزحزح ، لذلك لا قيمة للزمن . القيمة لسيكولوجيا الخيبة التي تنسحب من منى الى أمينة ، وتصل الكبت بالعجز ، فيتجمع الامل الثقافي بأسره حرقة .

ماذا يقع داخل هذا الزمن الميت سوى الموت نفسه ؟ وما قيمة العلاقات التي لا تستطيع الخروج من جدار الموت ؟ قيمتها في وجودها نفسه . لا قيمة خارج هذا المنطق الموحد . وأخيرا يصل البعد الروائي تاريخنا بسكونية الحاضر ، عند هذه اللحظة ، يتشقق الشعر ، ويبدأ في الامتداد حتى يسلب اللحظة فجائيتها .

المدى الطويل

يكتب حيدر حيدر على مدى شاسع ، لا يضغط اللحظة ، بل يتركها تنساب بين الاصابع . فيتكرر الحدث الواحد بصيغ مختلفة . وتتكرر المواقف . ويدخل الملل ركانا ليس له من حيث المبدأ . هذا المدى في الكتابة يحمل موقفا ، يكرر ، وليس النقد هنا . لكن التكرار حين يفقد معناه الرتيب ويصبح مجرد رتابة ، فانه يسلب رواية الموقف موقفها نفسه . ويجعلنا نضيع داخله متاهة من الاحداث التي يمكن حذف بعضها دون الاخلال بالرؤية الواحدة التي تجعل من هذا العمل رواية تجدد في صياغة الحزن والشهوة .

يلعب التكرار في بداية الرواية ، دور القدرة على طي المواقف داخل الانا . لكن حين يصبح سمة عامة ، يعيق الجانب الاخر من الرواية . جانب الحركة الخلفية ، الحركة الواقعية ، التي تتجاوز الزمن السيكولوجي. فلو تحرك هذا الجانب بفعالية اكثر ، لاستوعب الحركة الرتيبة وقعرها في آلية واقعية مركبة . لكن اعاقة هذه الحركة في